

قصص الأنبياء

قال ابن إسحاق : كان رجلا من الروم وهو أيوب بن موص بن رازح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

وقال غيره : هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب وقيل غيره ذلك في نسبه .

وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام وقيل كان أبوه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام يوم ألقى في النار فلم تحرقه .

والمشهور الأول لأنه من ذرية إبراهيم كما قررنا عند قوله تعالى : { ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون } الآيات من أن الصحيح أن الضمير عائد على إبراهيم دون نوح عليهما السلام .

وهو من الأنبياء المنصوص على الإحياء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى : { إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب } الآية .

فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق وامراته قيل : اسمها " ليا " بنت يعقوب وقيل " رحمة " بنت أفرائيم وقيل " ليا " بنت منسا بن يعقوب وهذا أشهر فلهذا ذكرناه هاهنا . ثم نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان . قال الله تعالى : { وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين } وقال تعالى في سورة ص : { واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب * اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب * ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب * وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنت إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب } .

وروى ابن عساكر من طريق الكلبي أنه قال : أول نبي بعث إدريس ثم نوح ثم إبراهيم ثم إسماعيل ثم إسحاق ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هود ثم صالح ثم موسى وهارون ثم إلياس ثم اليسع ثم عرف بن سويلخ بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب ثم يونس بن متى من بني يعقوب ثم أيوب بن زراح ابن آموص بن ليفرز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم وفي بعض هذا الترتيب نظر : فإن هودا وصالحا : المشهود أنهما بعد نوح وقبل إبراهيم والله أعلم .

* * *

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم : كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه

من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران وحكى ابن عساكر : أنها كلها كانت له وكان له أولاد وأهلون كثير .

فسلب منه ذلك جميعه وابتلى في جسده بأنواع من البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر D بهما وهو في ذلك صابر محتسب ذاكر D في ليله ونهاره وصباحه ومساءه .

وطال مرضه حتى عافه الجليس وأوحش منه الأنيس وأخرج من بلده وألقى على مزبلة خارجها وانقطع عنه الناس ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته كانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعيّنه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأوده B وأرضاها وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد وما يختص بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة فإننا وإنا إليه راجعون .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله A قال : [أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل] وقال : [يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلاءه] . ولم يزد هذا كل أيوب عليه السلام إلا صبرا واحتسابا وحمدا وشكرا حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام ويضرب المثل أيضا بما حصل له من أنواع البلاء . وقد روى عن وهب بن منبه وغيره من علماء بني إسرائيل في قصة أيوب خبر طويل في كيفية ذهاب ماله وولده وبلائه في جسده وإني أعلم بصحته .

وعن مجاهد أنه قال : كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدري . وقد اختلفوا في مدة بلواه على أقوال : فزعم وهب أنه ابتلي ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص وقال أنس : ابتلي سبع سنين وأشهرها وألقى على مزبلة لبني إسرائيل تختلف الدواب في جسده حتى فرج الله عنه وأعظم له الأجر وأحسن الثناء عليه وقال حميد : مكث في بلواه ثماني عشرة سنة وقال السدي : تساقت لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته فلما طال عليها قالت : يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك فقال : قد عشت سبعين سنة صحيحا فهل قليل ؟ أن أصبر له سبعين سنة ؟ فجزعت من هذا الكلام وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام .

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها لعلمهم أنها امرأة أيوب خوفا أن ينالهم من بلاءه أو تعديهم بمخالطته فلما لم تجد أحدا يستخدمها عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيريها بطعام طيب كثير فأتت به أيوب فقال : من أين لك هذا ؟ وأنكره فقالت : خدمت به أناسا فلما كان الغد لم تجد أحدا فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به فأنكره وحلف لا يأكله

حتى تخبره من أين لها هذا الطعام ؟ فكشفت عن رأسها خمارها فلما رأى رأسها مخلوقا قال في دعائه : { رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين } .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا جرير بن حازم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان فجاء يوما فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد فقال أحدهما لصاحبه : لو كان الله علم من أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا فجزع أيوب من قولهما جزعا لم يجزع مثله من شيء قط فقال : اللهم إن كنت تعلم أنني لم أبت ليلة قط شبعا وأنا أعلم مكان جائع فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أنني لم يكن لي قميصا قط وأنا أعلم مكان عار فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان ثم قال : اللهم بعزتكم وخر ساجدا فقال اللهم : بعزتكم لا أرفع رأسي أبدا حتى تكشف عني فما رفع رأسه حتى كشف عنه .

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعا : حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرني نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس بن مالك أن النبي A قال : [إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له كانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين قال صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له فقال أيوب : لا أدري ما تقول ؟ غير أنا والله يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعا فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق .

قال : وكان يخرج في حاجته فإذا قفاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع فلما كان ذات يوم أبطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب في مكانه : أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب { فاستبطأت فتلقته تنظر وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان فلما رآته قالت : أي بارك الله فيك ! هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ؟ فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلا أشبه به منك إذا كان صحيحا قال : فإني أنا هو قال : وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض [.

هذا لفظ ابن جرير وهكذا رواه بتمامه ابن حبان في صحيحه عن حمد بن الحسن بن قتيبة عن حرمة عن ابن وهب به وهذا غريب رفعه جدا والأشبه أن يكون موقوفا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد أنبأنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب وجلس في ناحية فجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت : يا عبد الله أين ذهب هذا المبتلى الذي كان هنا ؟ لعل

الكلاب ذهبت به أو الذئاب وجعلت تكلمه ساعة فقال : ويحك أنا أيوب ! قالت : أتسخر مني يا عبد الله ؟ فقال : ويحك أنا أيوب قد رد الله علي جسدي .

قال ابن عباس : ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله إليه : " قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب من صاحبك قربانا واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك " رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا عمرو بن مرزوق حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي A قال : [لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جرادا من ذهب فجعل يأخذ منه بيده ويجعل في ثوبه قال : فقيل له : يا أيوب أما تشبع ؟ قال : يارب ومن يشبع من رحمتك ؟] .

وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبي داود الطيالسي وعبد الصمد عن همام عن قتادة به ورواه ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن محمد الأزدي عن إسحاق بن راهويه عن عبد الصمد به ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب وهو على شرط الصحيح والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة : أرسل على أيوب رجل من جراد من ذهب فجعل يقبضها في ثوبه فقيل : يا أيوب ألم يكفك ما أعطيناك ؟ قال : أي رب من يستغني عن ذلك ! هذا موقوف وقد روى عن أبي هريرة من وجه مرفوعا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق : حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله A : [بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه رجل جراد من ذهب فجعل أيوب يحثي في ثوبه فناده ربه D : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يارب ولكن لا غني لي عن بركتك] رواه البخاري من حديث عبد الرزاق به .

وقوله : { اركض برجلك } أي اضرب الأرض برجلك فامتثل ما أمر به فأنبع الله عينا باردة الماء وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى والسقم والمرض الذي كان في جسده ظاهرا وباطنا وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالا تاما ومالا كثيرا حتى صب له من المال صبا مطرا عظيما جرادا من ذهب .

وأخلف الله له أهله كما قال تعالى : { وآتيناه أهله ومثلهم معهم } فقيل : أحياهم الله بأعيانهم وقيل : أجره فيمن سلف وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة وقوله : { رحمة من عندنا } أي رفعنا عنه شدته وكشفنا ما به من ضر رحمة منا به ورأفة وإحسانا { وذكرى للعابدين } أي تذكرة لمن ابتلى في جسده أو ماله أو ولده فله أسوة بنبي الله أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حق فرج الله عنه .

ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال : هي " رحمة " من هذه الآية فقد أبعد النجعة وأغرق

النزع وقال الضحاك عن ابن عباس : رد اﻻ إليها شبابها وزادها حتى ولدت له ستة وعشرين ولدا ذكرا .

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية ثم غيروا بعده دين إبراهيم .

وقوله : { وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب } هذه رخصة من اﻻ تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام فيما كان من خلفه ليضربن امرأته مائة سوط فقيل حلفه ذلك لبيعها ضفائرها وقيل لأنه عارضها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأنته فأخبرته فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربنها مائة سوط فلما عافاه اﻻ D أفتاه أن يأخذ ضغثا وهو كالعثكال الذي يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ويكون هذا منزلا منزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحنث .

وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى اﻻ وأطاعه ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة B ها .

ولهذا عقب اﻻ الرخصة وعللها بقوله : { إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب } وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة في باب الأيمان والندور وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الأيمان وصدروه بهذه الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب وسنذكر طرفا من ذلك في كتاب الأحكام عند الوصول إليه إن شاء اﻻ تعالى .

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ : أن أيوب عليه السلام لما توفي كان عمره ثلاثا وتسعين سنة وقيل إنه عاش أكثر من ذلك .

وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه : أن اﻻ يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء وبيوسف عليه السلام على الأرقاء وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء .

* * *

وأنه أوصى إلى ولده " حومل " وقال بالأمر بعده ولده " بشر " بن أيوب وهو الذي يزعم كثير من الناس أنه " ذو الكفل " فﻻ أعلم .

ومات ابنه هذا وكان نبيا فيما يزعمون وكان عمره من السنين خمسا وسبعين .

ولنذكرها هنا قصة ذي الكفل إذ قال بعضهم : إنه ابن أيوب عليهما السلام وهذه هي .

* * *